بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ ﴾

ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة.

***

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

القرآن كتاب أنزلناه إليك، فلا تتحرج من تبليغه خوفًا من تكذيب قومك أو عداوتهم، فما عليك إلا البلاغ، وتذكير المؤمنين، أن اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، ولا تتبعوا من دونه أولياء زائفين ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وفى ذلك حثّ على تذكر الله، بما أودعه فى فطرهم، وبشهاداتهم له بالربوبية، كما ستبينه الآية ١٧٢، وبما أنزل من كتب وبعث من رسل، وبما يشاهدون ويعاينون من أحوال الدنيا.

***

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ مثل أقوام نوح، وعاد، وثمود، ولوط ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا ﴾ أنزلنا عليها عذاب الإهلاك إما ليلاً كما حدث لقوم لوط ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أو وقت القيلولة، كما حدث لقوم شعيب، فما كان منهم عندما رأوا عذابنا ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

* * *

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

سيسأل الله الأقوام التى أرسل إليها المرسلين هل بلغتكم الرسالة؟ وسيسأل الله أيضًا الرسل هل بلغتم ما أنزل إليكم من ربكم؟ وسيخبر الله الجميع بكل ما فعلوا؛ لأنه وحده حاضر الغيب والشهادة ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يضع الله موازين الحق يوم الحساب، فمن جاء بإيمان وأعمال صالحة، ثقلت موازينه وأفلح، ومن خفت موازينه فى الإيمان والعمل الصالح فقد خسر نفسه، بظلمه لها وتكبره وجحوده آيات الله.

* * *

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ولقد سخر الله للإنسان الأرض وما فيها ليتمكن من العيش وحمل تكاليف الخلافة ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فقليل من يحمد الله ويشكره.

* * *

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ تعددت تأويلات المفسرين فى ذلك، ومنها أن المقصود أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الناس وقت أن خلق آدم، أو بخلق آدم؛ ثم صورهم فى أرحام أمهاتهم، ثم قال الله للملائكة ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ سجود طاعة لا سجود عبادة، وذلك تكريم له وللعلم الذى حباه الله به، كما جاء فى آيات سورة البقرة (٣١ ـ ٣٤)، ولقد سجدوا جميعًا ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ سأله ربه ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ قال فى غرور: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فتكبر فعصى، فكان جزاؤه الطرد من الجنة ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فاخرج من الجنة وأنت من الأذلاء ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قال إبليس: أمهلنى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ حسابك مع المؤجلين إلى يوم القيامة.

***

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾

أقسم الشيطان على أن يعمل وسعه حتى ينحرف أبناء آدم ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ افترى إبليس اللعين على الله، فقال: بما أضللتنى، فحمّل الله مسئولية ضلاله ـ وبمثل ذلك قال كثير من الضالين: لو أراد الله ما عبدنا من دونه من شىء ـ بسبب حُكمكَ علىَّ بالضلال عن الهدى ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ لأتربصنَّ لآدم وبنيه علىَ الطريق المستقيم لأدفعهم للانحراف عنه ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ ثم أدخل عليهم بكل وسيلة ممكنة، ومن كل جهة ومنفذ، وهناك أقوال عديدة عن الجهات الأربع، منها أن المقصود ببين أيديهم المستقبل وما يغريهم ويخوفهم إبليس منه، والمقصود بمن خلفهم تأويلاته الباطلة لماضيهم، واليمين مدخل التفاؤل واليسر؛ واليسار مدخل التشاؤم والعسر ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الشكر دائمًا قرين الإيمان والعمل الصالح، فقال الله له ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ اخرج من الجنة محتقرًا مذمومًا مطرودًا مبعدًا، ومن سيتبعك من بنى آدم سيكون مصيره معك جهنم.

***

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾

تتشابه قصة الخلق والخروج من الجنة فى كلٍّ من العهد القديم من الكتاب المقدس والقرآن، والقصة هامة جدًا فى كلٍّ من التراث الإسلامى، والتراث اليهودى المسيحى، وبها انعكاسات رئيسية فى فهم دور الإنسان وعلاقاته المتعددة فى الكون، ولذلك سننقل نص الكتاب المقدس فى الهامش قبل محاولة الشرح والتعليق[1].

(١) وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليفلحها ويعتنى بها. وأمر الرب الإله آدم قائلاً: «كل ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إياك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر؛ لأنك حين تأكل منها حتمًا تموت».
ثم قال الرب الإله: «ليس مستحسنًا أن يبقى آدم وحيدًا. سأصنع له معينًا(*) مشابهًا له». وكان الرب الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدم ليرى بأى أسماء يدعوها، فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حيّ اسمًا له. وهكذا أطلق آدم أسماء على كل الطيور والحيوانات والبهائم. غير أنه لم يجد لنفسه معينًا مشابهًا له. فأوقع الرب الإله آدم فى نوم عميق، ثم تناول ضلعًا من أضلاعه وسد مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم. فقال آدم: «هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى. فهى تدعى امرأة لأنها من أمرئ أخذت».
وكانت الحية أمكر وحوش البرية التى صنعها الرب الإله، فسألت المرأة: «أحقًا أمركما الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنة»؟ فأجابت المرأة: «يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها، ما عدا ثمر الشجرة التى فى وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لكى لا تموتا». فقالت الحية للمرأة: «لن تموتا، بل إن الله يعرف أنه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله، قادرين على التمييز بين الخير والشر». وعندما شاهدت المرأة أن الشجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون، ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضًا فأكل معها، فانفتحت للحال أعينهما، وأدركا أنهما عريانان، =

(*) جاء النص فى كتاب *أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا*، الذى كتبه ستة من الأمريكيين المتخصصين فى الأصولية فى أمريكا، وحررته كمبرلى بلاكر، ونشرته New Boston Books Inc.، وترجمته مكتبة الشروق الدولية وطبعته طبعتين، جاء النص الإنجليزى كالآتى:
He made a help mate for him - a companion, someone to satisfy his needs (Gensis) 2:18.
خلق مساعدًا، صاحبًا (أى حواء)، لإشباع حاجاته ـ سفر التكوين ٢ : ١٨.

= فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين. ثم سمع الزوجان صوت الرب الإله ماشيًا فى الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبآ من حضرة الرب الإله بين شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم: «أين أنت؟» فأجاب: «سمعت صوتك فى الجنة فاختبأت خشية منك لأنى عريان».

فسأله: «من قال لك إنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها؟». فأجاب آدم: «إنها المرأة التى جعلتها رفيقة لى. هى التى أطعمتنى من ثمر الشجرة، فأكلت». فسأل الرب الإله المرأة: «ماذا فعلت؟» فأجابت: «أغوتنى الحية فأكلت». فقال الرب الإله للحية: «لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من بين جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، ومن التراب تأكلين طوال حياتك، وأثير عداوة دائمة بينك وبين المرأة، وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسك وأنت تلدغين عقبه». ثم قال للمرأة: «أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولادًا، وإلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلط عليك». وقال لآدم: «لأنك أذعنت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التى نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك، وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك شوكًا وحسكًا تنبت لك، وأنت تأكل عشب الحقل. بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن تراب أخذت، وإلى تراب تعود».

ثم قال الرب الإله: «ها الإنسان قد صار كواحد منا، يميز بين الخير والشر. وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل، فيحيا إلى الأبد». فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض التى أخذ من ترابها.

وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم، وسيفًا ناريًا متقلبًا شرقى الجنة لحراسة الطريق المفضية إلى «شجرة الحياة» ـ سفر التكوين: الإصحاح ٢: ١٥ ـ ٢٥، الإصحاح ٣: ١ـ٢٤.

وجاء فى كتاب: *أصول التطرف ـ اليمين المسيحى فى أمريكا*: كانت تبعية المرأة المتزوجة هى المفهوم الذى بُنى عليه القانون العام للثقافة الأنجلو ـ أمريكية، والذى تم التخلى عنه تدريجيًا من الدول المختلفة خلال القرن التاسع عشر، وهو المفهوم الذى كان يحدد دور المرأة المتزوجة؛ حيث كانت مثل العبيد، تعد ميتة من الناحية المدنية. فالعبد لا يملك أى وجود قانونى مستقل بعيدًا عن سيده، وبالزواج أصبح الزوج والزوجة «شخصًا واحدًا»، وهو شخص الزوج.

ويستقى هؤلاء الرجال مواقفهم الذكورية من انتماءاتهم وعلاقاتهم بالجماعة (جماعة اليمين المسيحى) بشكل تنظيمى، بينما تتعلمها النساء عن طريق المرشدين الدينيين والكتابات الأصولية، والتى من خلالها يستخدم الكتاب المقدس والقيم الدينية كأداة لقمع النساء:

«المسيح هو الرأس لكل رجل، أما رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله»، «فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أُخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وجدت لأجل الرجل» ـ الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١١: ٣-٩.

«فكما أن الكنيسة قد أخضعت للمسيح، فكذلك الزوجات أيضًا لأزواجهن فى كل شىء» - الرسالة إلى مؤمنى أفسس ٥: ٢٤.

«فليس الله إله فوضى بل إله سلام، كما هى الحال فى كنائس القديسين كلها، لتصمت النساء فى الكنائس، فليس مسموحًا لهن أن يتكلمن، بل عليهن أن يكن خاضعات، على حد ما توصى به الشريعة أيضًا، ولكن إذا رغبن فى شىء ما، فليسألن أزواجهن فى البيت؛ لأنه عار على المرأة أن تتكلم فى الجماعة» ـ الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١٤: ٣٣ ـ ٣٥.

«على المرأة أن تتلقى التعليم بسكوت وبكل خضوع، ولست أسمح للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل، بل عليها أن تلتزم السكوت. ذلك لأن آدم كون أولاً ثم حواء، ولم يكن آدم هو الذى انخدع (بمكر الشيطان) بل المرأة انخدعت فوقعت فى المعصية. إلا أنها ستحفظ سالمة فى ولادة الأولاد» ـ الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢: ١١-١٥. (راجع كتاب *أصول التطرف ـ اليمين المسيحى فى أمريكا*) =

ما هى الشجرة التى نهى الله آدم وحواء عن الأكل منها؟

فى الكتاب المقدس هى شجرة معرفة الخير والشر، والتى إذا أكل منها آدم «. . . صار كواحد منا» وذلك قول الإله. أما القرآن، فهو لم يحدد نوع الشجرة، وإنما ذكر أن إبليس أغوى آدم على الأكل من الشجرة ـ كما جاء فى سورة طه، فزعم له ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ ـ أقسم الشيطان أنه لهما من الناصحين، وأن الأكل من ثمار تلك الشجرة يجعلهما ملكين، أو خالدين.

وبالتباين عن تحديد الكتاب المقدس للشجرة المحرمة على أنها شجرة معرفة الخير والشر، فقد قال بعض مفسرى القرآن: إن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم كان تكريمًا للعلم الذى وهبه الله له. والفارق الثانى هو أن قصة الكتاب المقدس تضع اللوم كله على حواء فى الأكل من الشجرة: «ثم أعطت زوجها أيضًا فأكل»، فأصبحت حواء فى الميراث اليهودى المسيحى سبب الخروج من الجنة، ورمزًا للغواية والخطيئة، بينما فى الميراث الإسلامى، خلق الله آدم وحواء لخلافته على الأرض من البداية، فليس هناك خطيئة أولى أو خطيئة أصلية، بالإضافة لأنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فليس على بنى آدم حمل أى وزر لأبيهم، وأن خلافتهم على الأرض هى المشيئة الإلهية الأصلية، وهى تكريم لهم وليست عقابًا، وقد بينت سورة البقرة أن الله تاب على آدم من خطيئته ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾، بل جاء فى سورة طه أن الله اجتبى آدم، أى قربه بعد عصيانه وهداه ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ وقص القرآن أن إبليس وسوس مرة لآدم وحده، ومرة لكلٍّ من آدم وحواء.

واشتركت القصتان فى أن عصيان الله بالأكل من الشجرة كشف لآدم وحواء عن عوراتهما.

كيف بدت العورتان بالعصيان؟ ليس هناك نص قرآنى يبين ذلك، ولا حديث نبوى صحيح، ولكن من ضمن ما توضحه الآية وجود تلازم بين عصيان الله وظهور العورة، ولعل أفضل ما قالت التفاسير فى ذلك ما جاء عند مخلوف: [ولعل المعنى والله أعلم: أنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلا، وخلعا ثوب الطاعة وبدت منهما

= «صفحة ١٥٣، ١٥٤». وقدر الكتاب نسبة المسيحيين الأصوليين فى أمريكا بحوالى ٣٧٪ من المسيحيين، وقدرت دراسات أخرى عددهم بين ٢٥٪ إلى ٣٥٪.

سوأة المعصية، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستنكار والاستخفاء حتى لا يُرى، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما].

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها. . والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى، ومن الحياء من الله ومن الناس؛ والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وإعلامهم لتأصيل هذه المحاولة ـ فى شتى الصور والأساليب ـ هم الذين يريدون سلب «الإنسان» خصائص فطرته، وخصائص «إنسانيته» التى بها صار إنسانًا. وهم الذين يريدون إخضاع الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته.

وتكتمل القصة القرآنية بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبخ آدم وحواء على الأكل من الشجرة، وعلى اتباعهما للشيطان، عدوهما المبين. فاعترفا بخطئهما وبظلمهما لأنفسهما، وتضرعا لله طالبين غفرانه ورحمته، وإلا خسرا الدنيا والآخرة. وأهبطهما الله من الجنة إلى الأرض، للاستقرار والمتاع إلى حين، فمن قام بالخلافة، فاز بالدنيا والآخرة، ومن أخلد للأرض، كان نصيبه فيها، وهو فى الآخرة من الخاسرين. هبطوا جميعًا إلى الأرض. . آدم وزوجه، وإبليس وقبيله؛ لتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما خالصة للشر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر؛ وليتم الابتلاء، ويجرى قدر الله بما شاء، إلى يوم البعث والجزاء.

وقد تعددت أقوال المفسرين فى الجنة، هل هى جنة الجزاء فى الآخرة؟ أم جنة أخرى فى السماء، إلى جنة فى الأرض، كما جاء فى قصة صاحب الجنتين فى سورة الكهف؟

***

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾

إن الله ـ تعالى ـ يمتن على البشر بأن أنزل لهم ﴿ لِبَاسًا ﴾ وهو كل ما يلبسه الإنسان ليوارى، أى ليخفى ويستر عورته ﴿ وَرِيشًا ﴾ لباسًا فاخرًا ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ فمن يريد الستر والزينة فليتحل بالتقوى وخشية الله؛ فذلك خير له.

قال محمد الغزالى: [لقد انفرد الإنسان دون سائر الحيوان بارتداء ثيابه، وحسنًا فعل؛ فهى تستر عورته وتزين هيئته. . وللناسِ فى ملابسهم تجاوزات، فقد يختالون بها

ويستكبرون، وقد يَزنون أنفُسهُم بقيمة ما يرتدون، وقد تقصر النساء ثيابها حتى لتكادُ تكشف سوءاتها! وقد تُضيقها وترققها حتى لتكاد تصف وتشف! وهذا كله لا يسوغ؛ فإن شرفَ الإنسان ليس فى ثوبه، وقيمته ليست فيما يرتديه... هناك ثوبٌ آخر يكسو باطنهُ، ويبرز حقيقته هو ما سماهُ القرآن بلباس التقوى ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وما أكثر أسباب التذكر، ولكن الإنسان ينسى].

***

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾

يا بنى آدم احذروا، لا تستجيبوا للشيطان فيفتنكم عن دينكم كما فتن أبويكم، فاستجابا له، فأخرجهما من الجنة، ونزع عنهما لباسهما، وأظهر لهما عوراتهما ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ يراكم هو وأعوانه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يرون مواطن ضعفكم من حيث لا ترون ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فللشيطان سلطان على الكافرين والغافلين.

قال سيد قطب: [والله يذكر بنى آدم بنعمته عليهم فى تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم! وفى تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ والزينة «الإنسانية» هى زينة الستر، بينما الزينة «الحيوانية» هى زينة العرى.. ولكن «الآدميين» فى هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة. فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!!

وزيادة فى التحذير، واستثارة للحذر، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم. وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية؛ وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط، وإلى مضاعفة اليقظة، وإلى دوام الحذر؛ كى لا يأخذهم على غرة ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

ثم الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى.. إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون.. ويا ويل من كان عدوه وليه! إنه إذن يسيطر عليه ويستهويه ويقوده حيث شاء، بلا عون ولا نصير، ولا ولاية من الله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وإنها لحقيقة . . أن الشيطان ولى الذين لا يؤمنون؛ كما أن الله هو ولى المؤمنين . . وهى حقيقة رهيبة، ولها نتائجها الخطيرة . . وهى تذكر هكذا مطلقة؛ ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة؛ فنرى كيف تكون ولاية الشيطان؛ وكيف تفعل فى تصورات الناس وحياتهم . . وهذا نموذج منها].

* * *

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) ﴾

وإذا فعل الذين لا يؤمنون فاحشة، تحججوا بأن هذه الأفعال كان يقرّها الآباء، فلا شك أن الله قد أمر بها، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ قل لهم يا محمد: ﴿ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل، وهو التوحيد فى الاعتقاد والاستقامة فى العمل ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ توجهوا إلى عبادة الله فى كل مسجد، ولأهل الباطن أن يقولوا ارفعوا رؤوسكم بطاعة الله فى كل مجال وكل سبيل وكل عمل، فهناك وجه لله فى كل ذلك ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ كما أحياكم أول مرة ستعودون إليه أحياء، وستكونون فريقين: فريق هداه الله بسعيه إليه وبتصديقه بالحسنى، وفريق حكم عليه بالضلالة لأنه بخل واستغنى وكذب بالحسنى، واتخذ الشياطين أولياء من دون الله، وزين لهم ظنهم أن ما يفعلونه حق.

* * *

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾

جاء فى الحديث «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» رواه أحمد. ولم يمنع الله متع الدنيا الحلال، ولا تحريم إلا بنص، فالأصل فى الشريعة هو الإباحة، وتلك المتع الحلال فى الدنيا، سينالها المؤمنون فى الآخرة خالصة بدون شوائب ولا كدر ولا تعب، ضمن ما جاء فى الحديث «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» رواه البخارى ومسلم.

* * *

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾

قل لهم يا محمد: إن الله قد حدد المحرمات، فقد حرم ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ أى كبائر المعاصى كالزنا وقول الزور والسرقة والرشوة والخمر ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها ﴿وَالإِثْمَ﴾ المعاصى أيّا كان نوعها ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ظلم النفس وظلم الآخرين ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أن تشركوا مع الله أندادًا، وليس لكم فى ذلك حجة أو برهان ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أن تنسبوا إلى الله ما لم يقله فى التحليل والتحريم.

***

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(٣٤)﴾

لكل أمة من الأمم ميقاتٌ محددٌ لنهايتها، حسب سنن الله فى كونه، فإذا جاءتهم نهايتهم، لا يتأخرونَ عنها، ولا يتقدمونها.

***

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾

الخطاب موجه للناس أجمعين ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إن أرسلت لكم رُسلى من بينكم، يقصون عليكم آياتى الدالة على وحدانيتى وقدرتى ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ فمن اجتنب الإلحاد والشرك، وإتيان المعاصى، وعمل الصالحات ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فأولئك هم الفائزون فى الدنيا وفى الآخرة ـ وتتنزل عليهم الملائكة ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ (٣١)﴾ [فصلت] ـ أما الذين يكذبون آياتى ويجحدونها استكباراً ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

***

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾

ليس هناك أظلم ممن اختلق على الله أقوالاً كاذبة، أو جحد آياته، أولئك ينالهم نصيبهم مما كتب الله لهم فى الدنيا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ فى أحد مشاهد الموت وما بعده، تأتيهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم، فتسألهم أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ ذهبوا عنا وغابوا، فلا ندرى أين هم! وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا من الكافرين.

* * *

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾

ادخلوا النار مع جملة الأمم التى مضت من الجن والإنس، وكلما دخلت أمة على أمة أخرى لعنتها، حتى اجتمعوا فيها جميعًا، فاشتكت الأخيرة لله أن الأولى هى التى أضلتها، وطالبت بالانتقام منها بتضعيف العذاب لها، وأجابت الأولى، وأنتم لستم بأفضل منا، فلماذا يقل عذابكم عن عذابنا؟ ـ وذلك تصديقًا لقوله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]، ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] ـ والمقصود بالأولى كل من ابتدع شركًا وكفرًا ومعصية، والآخرة من اتبع ذلك.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾

إن الذين كذَّبوا بآيات الله ولم يؤمنوا بها، بل تكبروا وتعالوا عليها ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ ولن يقبل لهم دعاء ولا توبة يوم القيامة ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ هؤلاء المكذبون المستكبرون الجاحدون، لن يدخلوا الجنة حتى يمر الجمل من ثقب إبرة الخياطة[1] ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ لهم فراش وغطاء من جهنم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾.

* * *

(١) فى العهد الجديد من الكتاب المقدس تشبيه مثيل لذلك، ولكن مع استبدال المكذبين المستكبرين بالغنى «الحق أقول لكم: إنه من الصعب على الغنى أن يدخل ملكوت السموات.. إنه لأسهل أن يدخل الجمل فى ثقب إبرة من أن يدخل الغنى ملكوت الله» ـ متى١٩: ٢٣-٢٤.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

دائمًا يقرنُ ربّ العالمين بين الإيمان وعمل الصالحات، ويؤكد أنه ـ سبحانه ـ لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وحتى القليل من العمل الصالح، الذى لا تستطيع نفس القيام بأكثر منه، فجزاؤه الخلود فى الجنة، وإن الله ليستخرج من قلوب أهل الجنة الغل الدنيوى، ويحمدون الله أن هداهم للإيمان والعمل الصالح ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فعندما جاءت رسُلُ الله اهتدينا بهديهم، فكان جزاؤهم أن نادت عليهم الملائكة مرحبةً ومبشرة، وفى الحديث «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا (لا تمرضوا) أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا (أى: تعيشوا جميعًا فى سن الشباب)، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا» رواه مسلم.

***

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) ﴾

ينادى أهل الجنة على أهل النار فيقولون لهم: ما رأيكم؟ لقد ﴿ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ وهو سؤال للتبكيت، فقالوا: ﴿ نَعَمْ ﴾ نعم، لقد حذرتنا الكتب السماوية والرسل من الإشراك بالله، ومن أن يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، ومن أننا سنبعث ليوم الحساب، يضع فيه رب العالمين الموازين الحق، واليوم عرفنا أن الله حق، وأن وعده ووعيده حق، وأن يوم الحساب حق، وفى أثناء هذا الحديث يؤذن مؤذنٌ بينهم ﴿ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ من هم الظالمون؟ ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ينحرفون يمينًا ويسارًا، شرقًا وغربًا، ويجحدون سبيل الله، ليس فقط ذلك، بل يحاولون قدر جهدهم صد المؤمنين عن سبيل الله، تارة بأن فلانًا يقول كذا، وتارة بأن مذهب كذا أو مبدأ كذا يقول كذا، ولا يتبعون سبيل الله، بل يريدونها معوجة طبقًا لأهوائهم ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾.

***

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

بين المؤمنين والكافرين حجاب ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ وعلى مرتفعات الحجاب رجال يعرفون صفات أصحاب الجنة: مؤمنين عادلين، للصالحات عاملون، وصفات أصحاب النار: جاحدين مستكبرين ظالمين، للسيئات عاملون. نادوا على أصحاب الجنة طامعين أن يلحقوا بهم: السلام عليكم، وإذا رأوا أصحاب النار تضرعوا لله قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فمن هم أصحاب الأعراف؟.

قال مخلوف: [وهؤلاء الرجال أقوام من المؤمنين استوت حسناتهم وسيئاتهم، فحبسوا هناك حتى يقضى الله فيهم بما يشاء. . . فيكونون آخر أهل الجنة دخولاً]، وذلك مثل قول الزمخشرى والبيضاوى والمراغى، بينما قال شلتوت: [أُرَجِّح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على الناس وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل، أما قوله تعالى ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ فليس عنهم، ولكن عن أهل الجنة (أى يطمعون فى دخول الجنة قبل أن يدخلوها بالفعل)] وذلك مثل قول الماتريدى.

* * *

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾

ونادى الرجال الذين على الأعراف على رجال يعرفونهم بعلامات تدل على أنهم من الأشقياء، قالوا لهم مذكرين ولائمين: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ما أغنت عنكم كثرتكم سواء من الناس أو الأموال، ولا تكبركم على الحق وعلى الناس شيئًا فى عذابكم، انظروا إلى هؤلاء المستضعفين فى الأرض الذين كنتم لا تعرفون لهم حقوقًا، وأقسمتم أنه لا ولن ينالهم لطف ورحمة، قد دخلوا الجنة بعد أن قال لهم ربهم: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وتستمر الآيات تصور مشاهد الآخرة؛ حيث ينادى أهل النار على أهل الجنة ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ كى نطفئ الظمأ واللهيب المشتعل ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من نعيم الجنة ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ فأجابوهم إن الله حرم الماء ورزق الجنة على الكافرين، الذين جعلوا دينهم لعبة يلهون بها، فهم يتسلون بتناوله كيفما يشاؤون ووقتما يشاؤون، وفيما يشاؤون... وما إلى ذلك من الانحراف والنفاق، ويتركونه وقتما يشاؤون، ويخلدون للدنيا ومتاعها الزائل ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ فاليوم نهملهم، فلا ننظر إليهم بعين الرحمة، كما نسوا لقاء ربهم فى الآخرة وحسابه، وجحدوا آياته.

* * *

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولقد جئنا لهم بالقرآن، فصلنا بعلمنا آياته هدى من الله ورحمة لمن يؤمن به، ويتبع عهده الأول مع الله حين أشهده بأنه ربه، واتبع فطرته السليمة، وأعمل ما حباه الله به من وسائل إدراك ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ عندما يقول الجاحدون فى كل زمان ومكان، متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فهل لا يريدون إلا أن يروا ذلك الوعد يوم البعث والحساب حتى يؤمنوا؟ هل ينتظرون ما يؤول إليه الأمر من لقاء الله فى الآخرة؟ ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ فى ذلك اليوم، سيقول الجاحدون اللاهون فى الحياة الدنيا: لقد جاءت رسل الله بالحق، فهل يسمح لنا بشفعاء يشفعون لنا ويدافعون عنَّا؟! أو هل يمكن أن نأخذ فرصة أخرى فنعود إلى الحياة الدنيا، ونعدكم إن عدنا أن نعملَ ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فنعبد الله الذى خلقنا، والذى هو ربنا، والذى علينا اتباع شرعه واتقاء معصيته، ولكن حينذاك قد فات الأوان و﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾.

* * *

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

والأيام هنا لا تعني أيامنا في الدنيا، ولكنها تعني الأحوال، فعلى سبيل المثال، جاء في سورة الحج ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ فالأيام الستة لا يعلمها إلا الله ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقال الإمام مالك: [الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب]، وقال مخلوف: [قال الراغب: «مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة». (وقد) ذهب سلف الأمة ـ ومنهم الأئمة الأربعة ـ إلى أنه صفة لله ـ تعالى ـ بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل، لاستحالة اتصافه ـ تعالى ـ بصفات المحدثين. وذهب جمهور المتكلمين إلى وجوب صرفه عن ظاهره لاستحالته، وأن المراد منه ـ كما قال الإمام القفال ـ أنه استقام ملكه واطرد أمره، ونفذ حكمه ـ تعالى ـ في مخلوقاته] ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يغطي الليل النهار حتى يذهب بنوره ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعًا ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ تدور وتعمل عملها بأمره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

***

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ادعوا ربكم تذللاً وخضوعًا، سرًا في أنفسكم، وكما جاء في الحديث « إنكم لستم تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا» متفق عليه، وتذكروا دائمًا أن الله لا يحبّ المعتدين، وأكبر الاعتداء أن تشركوا معه غيره في الطاعة والاستعانة والرجاء، ولا تفسدوا في الأرض سواء بالأفكار الفاسدة، أو بالأعمال الفاسدة، بعد أن ظهر الصلاح والحق لديكم، وادعوا ربكم خوفًا من أن تنحرفوا وطمعًا في رحمته. وتذكروا أن نيل رحمة ربكم قريب من المحسنين. قال مخلوف: [تذكير «قريب» باعتبار معناها، أو لكون تأنيثها مجازيًا، فيجوز في خبرها التذكير والتأنيث] وقال الطبري: [ذكر قريب هو صفة لـ «الرحمة»، وذلك كقول العرب ملحفة جديد].

***

﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾

والله وحده هو القادر على إرسال الرياح المبشرة بالرحمة، كاللقاح والأمطار التى تنبت الزرع ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ حتى إذا حملت الرياح السحاب المثقل بحمل الماء ساقه الله ﴿ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ لأرض جدباء لا زرع فيها ولا ماء ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ فأنزل الله الماء، وأخرج به الثمرات، وكما جعلنا الأرض الميتة تخرج ألوانًا من الزروع ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ إن الله قادرٌ على أن يحيى الموتى من الناس ومن الثمرات ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ فإذا صادف الماء أرضًا طيبة خرج النبات طيبًا بإذن الله، وإذا صادف خبيثة فلن يخرج منها إلا الخبث الذى هو ضيق وشدة، كذلك القرآن حين ينزل على القلوب، إن صادف قلبًا مؤمنًا انتفع به وأثمر خيرًا، كما لو كان نورًا على نور، وإن صادف قلبًا جاحدًا زاده نفورًا، وكان سببًا فى نكده دينًا ودنيا ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾. جاء فى الصحيحين «مثلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصابَ أرضًا فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس وسقوا وزرعوا، وأصابَ منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تُمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعَلِمَ وعلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به».

***

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلالَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾

أرسل الله نوحًا (ﷺ) إلى قومه يُبلِّغهم أن يعبدوا الله الواحد الأحد ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، فما كان ردَ ﴿ الْمَلأُ ﴾ أى وجهاء القوم وأغنياؤهم إلا أن قالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ وهكذا دائمًا المتكبرون الجاحدون، يتهمون الأنبياء بالضلال ـ وقد قال

فرعون اللعين عن موسى كليم الله (ﷺ) ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، بينما قال ملأ فرعون من الانتهازيين المنافقين الملاعين ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ـ فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ ويا لمفارقة أن يتطاول أولئك الجهلاء الضالون، ويتواضع الأنبياء، فيجيبهم نوح (ﷺ): أنا لست ضالاً! أنا رسول رب العالمين! ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

***

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

وكشأن الكافرين فى كثرة الجدل، فلقد افتعلوا التعجب أن يرسل رب العالمين بشراً من بينهم يذكرهم بالله وينذرهم مخالفة ما خلقهم الله له، حتى يرحمهم بطاعته، ولكنهم كذبوه واستمروا على تكذيبه زمناً طويلاً، حتى ألهمه الله أن يصنع الفلك التى ركب فيها قلة من المؤمنين، وفار التنور، وطفت السفينة، وغرق الكفار أجمعون من قوم نوح، جزاء إصرارهم على تكذيب رسولهم وما تلاه عليهم من آيات الله، وعمايتهم أنفسهم عن الإيمان.

***

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وتتكرر الأحداث والمواقف، فيرسل رب العالمين رسوله هوداً (ﷺ) إلى قومه عاد، فقال ما قاله نوح (ﷺ) لقومه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فرد عليه ﴿الْمَلَأُ﴾ وجهاء القوم وأثرياؤهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهكذا دائماً يتطاول المتكبرون، الخاوون من الإيمان والبريئون من العلم، فيرمون الأنبياء وأتباعهم بأمراضهم هم: الضلال والسفاهة والكذب والإفساد فى الأرض.

***

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)﴾

وكما رد نوح (عليه السلام) على قومه من قبل رد أخوه هود (عليه السلام) على قومه بكل حلم وصبر وتواضع، فالله يعلم حيث يجعل رسالته، قائلاً بأنه ليس به سفاهة، وهو ليس بكاذب، وإنما هو رسول من عند الله ليبلغهم رسالة الله، وهو يريد أن ينصحهم بأمانة، ولكن الكبر لا يتركهم، فينتحلوا الحجج، ويفتعلوا التعجب من كونه بشراً منهم، وراح هود (عليه السلام) يذكرهم بقوم نوح وكيف جعلهم الله خلفاء من بعدهم، وميزهم بأن بسط لهم فى خلقهم، فأجدر بهم أن ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

***

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾

استمر قوم عاد فى عنادهم وجدالهم، فقالوا لرسولهم: أتريدنا أن نعبد الله وحده ونترك ما عبده آباؤنا؟ فإن كنت صادقًا أنزل علينا عذابًا كما تقول! فقال لهم هود (عليه السلام): ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قد وجب عليكم عذاب ربكم وغضبه بسبب جحودكم وما صنعتموه من آلهة وسميتموها أسماء أنتم وآباؤكم ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله لكم حجة لتعبدوها، وليس لها ما تستحق به العبادة، فانتظروا وعد الله ووعيده، وأنا معكم من المنتظرين، ونجَّى الله هودًا (عليه السلام) والذين آمنوا معه بفضله ورحمته، واستأصل الله عادًا.

***

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾

ثم أرسل الله صالحًا (ﷺ) إلى ثمود، ويُسمون عادًا الثانية وهم من العرب البائدة، وكانت مساكنهم الحجر المعروفة بمدائن صالح بين الحجاز والشام، طلب منهم مثلما طلب جميع الرسل من أقوامهم ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ولقد طلبتم آية بينة كى تؤمنوا، فأرسل الله إليكم ناقةً[1]، ثم طلب منهم أن يتركوها تأكل فى أرض الله ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وراح صالح (ﷺ) يذكرهم بنعم الله عليهم حتى يرقق قلوبهم، فقال لهم: لقد جعلكم الله خلفاء لقوم عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعل لكم مباءة فيها، أى منازل تسكنونها، فبنيتُمُ القصور فى السهول، ونحتم فى الجبال بيوتًا، فقابلوا هذه النعم بالشكر والعرفان لا بالكفر والإفساد فى الأرض.

* * *

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

وقال ﴿الْمَلَأُ﴾ أهل السلطة والثروة للضعفاء من المؤمنين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾؟ وهو سؤال فيه لؤم واستعلاء، فرد المستضعفون ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فرد المستكبرون ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ولم يكتفوا بالجحود والإنكار ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ نحروها ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ واستكبروا متمردين عن طاعة ربهم ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتحدوا رسول الله إليهم قائلين: ائتنا بما تعدنا من العذاب لو كنت حقًا من المرسلين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فأصابتهم الزلزلة[2] ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فأصبحوا

---

(١) هناك روايات تفصيلية كثيرة فى التراث عن الناقة، ولكن لم أجد لتلك الروايات سندًا صحيحًا على كثرتها، وسيجىء فى سورة الشعراء ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

(٢) إذا تتبعنا الآيات التى تخبرنا بإهلاك ثمود، نجدها تذكر: الرجفة ـ الصيحة ـ الصاعقة ـ الطاغية. ويبدو أن الصيحة هى بمثابة الأمر بإنزال عذاب الاستئصال، أو بدايته، وتشترك الرجفة والصاعقة والطاغية فى معنى الاضطراب الهائل الذى قد يكون زلزالاً، وقد يكون ذبذبات هائلة قاتلة مدمرة. وتشترك الصيحة فى إصدار تلك الذبذبات.

هامدين عن الحركة مصروعين ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ فتركهم رسولهم صالح (ﷺ) ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾.

* * *

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾

ثم أرسل الله لوطًا (ﷺ) إلى قومه، يدعوهم إلى الواحد الأحد، وينهاهم عن فاحشة الشذوذ التى لم يسبق أن مارستها أمة من الأمم السابقة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بدلاً من أن تأتوا النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أسرفتم على أنفسكم. فماذا كان جواب القوم؟ ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أخرجوا لوطًا ومن آمن معه ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ إن جريمتهم أنهم أطهار لا يفعلون الفاحشة. فماذا فعل رب العالمين؟ لقد نجى لوطًا وأهله ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى الباقين فى العذاب؛ لأنها كانت توافق قومها على أفعالهم. ولقد أهلك الله قوم لوط بحجارة من السماء، كما جاء فى سورة هود ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢)﴾.

* * *

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾

ثم أرسل الله إلى مدين أخاهم شُعيبًا (ﷺ)، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهى دعوته التى بينت الحق من الباطل ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ اعدلوا وأوفوا الناس حقوقهم، فى البيع والشراء، وفى كل المعاملات، واستقيموا فى كل أفعالكم بعد أن تبين لكم الصلاح من الفساد ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

* * *

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾

لا تمنعوا الناس من سبل الله المستقيمة، وتفتنوهم بمتع الدنيا الزائلة، واذكروا كيف كنتم أقلية فكثركم الله، واعتبروا بعواقب المفسدين من قبلكم، ولا تتعجلوا حكم الله بين من آمن برسالتى ومن رفضها.

***



obeikandl.com

obeikandl.com

# الجزء التاسع

## سورة الأعراف

من الآية ٨٨ حتى نهايتها الآية ٢٠٦

## وسورة الأنفال

من بدايتها حتى الآية ٤٠

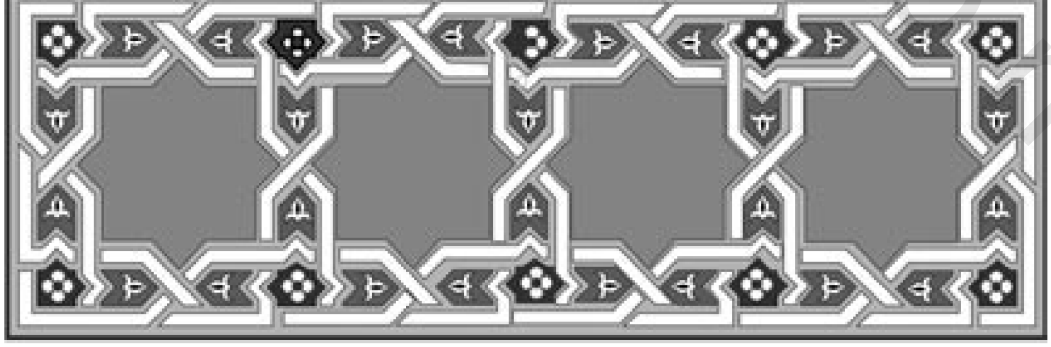

obeikandl.com

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾

قال أصحاب السلطة والثروة الذين استكبروا لشعيب (عليه السلام): سنخرجك يا شعيب أنت ومن آمن معك، أو تعودون لديننا. فأجابهم متسائلاً متعجبًا: أتكرهوننا على ملتكم؟ لو فعلنا ذلك لكان افتراءً منا على الله أن نعبد ما لم ينزل به سلطانًا، ولكان عودة للهلاك الذى نجانا الله منه، وما يجوز لنا ذلك ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ قال الطبرى: [إلا أن يكون سبق لنا فى علم الله أنا نعود فيها، فيمضى فينا حينئذ قضاء الله، فينفذ مشيئته علينا]، وقال الزمخشرى بمذهبه الاعتزالى: [فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والله ـ تعالى ـ متعال أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم فى الكفر؟ قلت: معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف (ألطاف الله من رحمته وفضله وكرمه) لعلمه أنها لا تنفع فينا وتكون عبثًا، والعبث لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾]. ثم ختم شعيب (عليه السلام) كلامه لقومه قائلاً: على الله توكلنا، ثم دعا ربه: ربنا اقض واحكم بيننا بالحق، وبيِّنْ من الذى على الهدى ومن الذى فى الضلال ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾

تمادى المتكبرون الجاحدون فقالوا لمن اتبع شعيبًا (عليه السلام): لو اتبعتم شعيبًا لخسرتم ما نحن فيه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ قال مخلوف: [الزلزلة الشديدة، وإسناد الإهلاك إليها هنا من الإسناد إلى السبب القريب، وإسناده إلى الصيحة فى آية ٩٤ من سورة هود من الإسناد إلى السبب

البعيد؛ إذ هى من أسباب الرجفة. وعلى ما اختاره ابن كثير يكون إهلاكهم بهما وبعذاب يوم الظلة كما سلف (كما جاء فى الآية ١٨٩ من سورة الشعراء)]، وارجع لهامش شرح الآية (٧٨) ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فأصبحوا هامدين عن الحركة مصروعين من الخوف. الذين كذبوا شُعيبًا فنوا، كأنهم ما كانوا وما عاشوا وما ملكوا، بل كانوا خاسرين للدنيا والآخرة ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ ففارقهم رسولهم، وقال: لقد أبلغتكم رسالات ربى، وبذلت الجهد فى نصحكم، فكيف أحزن عليكم بعد أن كفرتم؟.

***

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾

وما بعثنا نبيًا فى أى قرية من القرى فأعرضت عنه وعما يدعو إليه، إلا وابتلينا أهلها بالشدائد من فقر وبؤس ومرض وألم، لعلهم يتذكرون، ويعودون لرشدهم، ويتذللون لربهم ويؤمنون به، ثم نبتليهم بالسراء، ونبدل الفقر والمرض سعةً وقوة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ حتى نموا وكثروا، ومع ذلك ازدادوا نفوراً من الحق وإصراراً على الضلال ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أى أن هذا شأن الدهر يداول الضراء والسراء بين الناس، فأهلكناهم فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

***

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾

ولو أن أهل القرى آمنوا بالله ربًا ـ وليس خالقًا فقط؛ خلقهم وتركهم، عبثًا بدون منهاج حياة ولا هدف، ولا بعث ولا حساب ـ واتقوا الشرك به وعصيانه، ومن ثم عقابه، وأطاعوه فاستقاموا وعملوا الصالحات، لفتح الله عليهم كنوز الأرض والسماء رزقًا وبركة حلالاً، لا حرامًا باستباحة حقوق الآخرين وأعمالهم وخيراتهم وحياتهم إذا لزم الأمر، ولكنهم كذبوا

فحاسبهم الله بتلك المكاسب الباطلة، ثم تحذر الآية: أفأمن أهل القرى أن يأتيهم عقابنا وهم نائمون، أو نهارًا وهم لاهون؟ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أجهلوا سنة الله في المكذبين، وأن الله يمهل ولا يهمل، ومن يخادع الله فالله خادعه؟ لا يغفل هذه الحقيقة ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

***

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

أغاب عن الذين يخلفون من كان قبلهم أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقوهم؟ ولو أردنا لعذبناهم بذنوبهم، ولطبعنا على قلوبهم جزاء عملهم فلا يسمعون نصح ناصح.

***

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

وهي قرى قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب الذين أرسل الله إليهم رسلاً بالبينات، فلم تلن قلوبهم للحق، فهم لا يريدونه من البداية، لذلك جحدوا البينات، فطبع الله على قلوبهم وختم عليها جزاء كفرهم، أثبتوا أن أكثرهم لا يوفون بعهدهم الذين شهدوا فيه بوحدانية الله خالقهم، وأن أكثرهم عاصون.

***

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)﴾

ثم بعث الله بعد هؤلاء الرسل موسى (عليه السلام) إلى فرعون وبطانته بالحجة وبمعجزات أجريناها على يديه، فجحدوا بها، فانظر يا محمد كيف أغرقناه وجنوده الظالمين، وقال موسى (عليه السلام) لفرعون: إني رسول من رب العالمين، حق عليّ ألا أقول على الله إلا الحق،

ولدى بينات من ربكم على صدقى، فأرسل معى بنى إسرائيل، وكفاهم عبودية، فرد عليه فرعون قائلاً: إن كنت صادقًا فيما تقول فأرنا آيتك ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

* * *

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)﴾

استكبر وجحد فرعون وبطانته، فقالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ثم زورت اتهامًا فاجرًا وبهتانًا، وهكذا دائمًا يفعل الحكام الظالمون وبطاناتهم الفاسدة، فقالت ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وبعد ذلك قالوا لبعضهم البعض، وهم لا يتشاورون إلا فى الفساد والإفساد، وما فيه هلاك العباد والبلاد: فماذا نفعل؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أجل البت فى أمره وأمر أخيه هارون الذى يساعده حتى نرسل فى مدائن مصر ﴿حَاشِرِينَ﴾ يجمعون لك السحرة الماهرين.

* * *

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾

وطمع السحرة فى الحصول على مكافأة الانتصار على موسى (عليه السلام)، وهكذا دائمًا الحكام الظلمة الجهلة المستبدون لا يجذبون حولهم إلا الانتهازيين والمنافقين، فوعدهم فرعون بذلك، فقالوا لموسى (عليه السلام): ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ فرد واثقًا من تأييد الله ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم، فبهروا أعين الناس وأخافوهم، فلقد ﴿جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ يخدع كل من يراه.

* * *

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢)﴾

وأمر الله موسى (ﷺ) أن يلقى عصاه فألقاها، فإذا بها تبتلع ما ألقاه السحرة ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ فأصبح فرعون وبطانته صغاراً أذلاء حقراء، وإذا بالسحرة يخرون لله سجداً، ويشهدون أنهم آمنوا برب العالمين ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

* * *

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾

ولما كان ذكاء فرعون ومكره منحصراً في الشرور والمؤامرات، فابتدعت قريحته الخاوية من كل إيمان، الخربة من كل صلاح، تهمة للسحرة الذين آمنوا: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لقد تآمرتم مع موسى على المصريين، وأردتم أن تضروا المصريين وتخرجوهم من أراضيهم! وأنا حامي حمى المصريين، وكل ما أعمله لمصلحتهم، وأنا أعلم منهم، وأنتم خطر عليهم؛ لذلك ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، أو العكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فما كان من السحرة الذين آمنوا وأيقنوا برسالة موسى (ﷺ) إلا أن قالوا ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وما كراهيتك لنا أيها الفرعون، إلا أننا آمنا بربنا بعد أن رأينا آياته، وخلعنا ربوبيتك الزائفة وما تجره علينا من منافع، وما تفرضه علينا من نفاق وخنوع، ثم توجهوا إلى ربهم بقلب مفعم بالإيمان ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

* * *

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾

فإذا ببطانة فرعون تنحط إلى أحقر مستويات النفاق ـ والتي قال عنها رب العالمين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ـ فتقلب المقاييس بكل بجاحة وكبر، وإصرار على الزور

والبهتان، فتخاطب فرعونها وإمامها الذى يقدمها إلى نار جهنم ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وليست تلك فقط جريمة موسى (عليه السلام) ومن معه لدى نفوسهم المريضة، بل ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ وهنا يجيبهم إمامهم الظالم ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ فنحن أصحاب القوة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ فما كان من موسى (عليه السلام) إلا أن قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فإذا بقومه يحتجون ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فقال موسى (عليه السلام) بثقة فى ربه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

***

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾

لقد عاقب الله آل فرعون ﴿بِالسِّنِينَ﴾ جمع سَنَة، ومعناها الجدب والقحط وضيق العيش ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ نقص الزرع والثمار؛ لعلهم يتنبهون ويتعظون ويؤمنون بالله الواحد الأحد، ويخلعون ربوبية الطاغوت ورجسه، ولكنهم بدلاً من ذلك ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ ينتحلون لأنفسهم الفضل فى كل خير، ويلومون موسى (عليه السلام) ومن آمن معه على كل سيئة ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ ألا فليعلموا أن سبب شؤمهم أعمالهم السيئة التى أحصاها الله عليهم، فهو الذى يصيبهم بالمصائب جزاء لكفرهم، وليس موسى ومن معه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

***

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)﴾

وقال فرعون وبطانته بكل تكبر وجحود لموسى (عليه السلام): ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فالمسألة ليست مسألة حق وحجة وإقناع ومصلحة عامة فى الدنيا

والآخرة، إنما المسألة هى أننا فى عز وجاه وسلطان ومنافع ومصالح خاصة، ولن نتخلى عنها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ فأرسل الله عليهم عدة مصائب، فغشاهم الطوفان ﴿وَالْجَرَادَ﴾ كما أرسل عليهم طوفانًا آخر من الجراد فالتهم زراعتهم وثمارها ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ اختلفت التفاسير فيه، ولكنها اتفقت على أنه نوع من الحشرات الضارة ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ التى تكاثرت عليهم حتى صارت وباءً ﴿وَالدَّمَ﴾ تعددت الروايات عن الدم، ولكن لم يفصل القرآن ذلك، ولم نجد حديثًا نبويًا صحيحًا عنه ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ كل هذه البلايا آيات واضحات حتى يرتدع آل فرعون، ولكنهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ولكن إلى حين ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ ولما وقع عليهم العذاب الذى بينته الآية السابقة، لجئوا إلى موسى (عليه السلام) مستغيثين وواعدين بأنه لو دعا ربه، فاستجاب وكشف الرجز عنهم، ليؤمنن به، وليرسلن معه بنى إسرائيل، فلما كشف الله عنهم الرجز ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ إلى الوقت الذى أجلَّه الله لهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم، بترك بنى إسرائيل يخرجون مع موسى (عليه السلام).

***

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ(١٣٧)﴾

الآيتان السابقتان ١٢٨، ١٢٩ تفسران كثيراً من مضمون الآيات التالية وحتى الآية ١٧٧، فبعد أن نجَّى الله موسى (عليه السلام) ومن معه من فرعون، ومن الغرق فى البحر كما غرق فرعون وآله وجنوده، بدأ استخلاف بنى إسرائيل، وبدأ يتكشف كيف يعملون. انتقم الله من فرعون وآله بإغراقهم جزاء جحودهم كل آيات الله التى أتى بها موسى (عليه السلام)، وتغافلهم عما لايحبون، وهو أن الله أرسل موسى (عليه السلام) بالحق. وأورث الله موسى (عليه السلام) ومن معه مشارق الأرض المباركة ومغاربها، وتعددت أقوال المفسرين فى تلك الأرض، وأكثرهم على أنها الشام، ويُحتمل أنه يكون المقصود سيناء، وأتم الله كلمته الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، وفى ذلك فضل كبير من الله عليهم، خاصة أنه ليس كلهم صبروا، كما بينت الآية ١٢٩، وكما سيظهر من الآيات التالية. وقرنت الآية وراثة الأرض وإتمام كلمة الله الحسنى بالاستعانة بالله والصبر والتقوى. ودمر الله عروش الشرك والكفر.

***

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾

وعندما اجتاز موسى وبنو إسرائيل معه البحر، الذى ربما يكون خليج السويس، أو البحيرات التى فى شماله، أتوا على قوم يعبدون الأصنام، فإذا بهم يفاجئون ويفجعون موسى (عليه السلام) طالبين: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ فأجابهم متألمًا ومتحسرًا: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام ﴿ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ هالك ما هم فيه من الشرك وعبادة الأصنام، كما رأيتم بأعينكم هلاك فرعون وجنوده الظالمين ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ زائل عملهم لا خير فيه ولا ثواب، ثم قال موبخًا لهم: أأطلب لكم ربًا غير رب العالمين الذى فضلكم بالنعم العديدة ولم يعطها لأحد سواكم؟ وهل نسيتم أن الله هو الذى نجاكم من آل فرعون ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ يذيقونكم العذاب ألوانًا، فيقتلون أبناءكم الذكور، ويستعبدون نساءكم، وكان ذلك ﴿ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾

وعد الله موسى (عليه السلام) بمناجاته وتكليمه بعد ثلاثين ليلة من العبادة ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ زاده الله عشر ليال أخرى حتى أتمها أربعين ليلة من العبادة، فقال موسى (عليه السلام) لأخيه هارون (عليه السلام): ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾

ولما ذهب موسى (ﷺ) لميعاد ربه، وكلمه ربه، قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ لن تُطيق رؤيتى، ولكن ستعرفنى بوسيلة أخرى ﴿أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ حين أتجلى عليه ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ وما إن تجلى الله على الجبل ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مدكوكًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وسقط موسى مغشيًّا عليه من هول المشهد ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك ياربى تنزيهًا يليق بك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

***

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾

قال الله لموسى (ﷺ): إنى اصطفيتك بحمل رسالتى وبكلامى، فقم بمهمتك وكن من الشاكرين. وكتب الله فى الألواح موعظته وتفصيل العقيدة والشريعة، وأمر رسوله موسى (ﷺ) بأن يعمل بها بقوة وإصرار، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ وتعددت التفاسير فى أحسنها، فمن قائل مثل الأخذ بالعفو بدلاً من القصاص، وقال الزمخشرى: [أكثر للثواب] وقال الرازى: [الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح، وأحسن الثلاثة الواجبات والمندوبات] ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ سأريكم فى أسفاركم ما هو مصير الأمم السابقة التى خرجت عن أمر ربها، وكيف هلكت، وفى تفسير آخر: سأعرفكم ما الذى فى جهنم دار الفاسقين فى الآخرة، وفى تفسير ثالث، سأعرفكم ماذا حدث لدار فرعون والفاسقين من قومه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ تشرح هذه الآية كل ما جاء من آيات القرآن عن ختم الله على قلوب المتكبرين وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم، وعن أولئك الذين يضلهم الله، فهم: يتكبرون بغير حق، ويتعالون على إخوانهم من البشر، و ينقضون شهادتهم الأولى بربوبية الله، ويجحدون كل آية من آيات الله، فعطلوا بذلك فطرهم ومداركهم السليمة

فى انحراف متعمد عن الحق إلى الباطل، وبعدما يتبينون طريق الحق، يتركونه، وبعدما يتبينون طريق الباطل يسلكونه لأنهم كذبوا بآيات الله وتغافلوا عنها، ومن يفعل ذلك بطلت أعمالهم وصارت بلا قيمة ولا وزن، طبقًا للموازين الحق يوم القيامة ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾

وبينما كان موسى (عليه السلام) يُكلم ربه، إذا بقومه ينتكسون ويتخذون لهم إلهًا ﴿عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ﴾ فلقد جمع «السامرى» حليهم وأذابها وصنع منها ﴿عِجْلاً جَسَداً﴾ جسد عجل ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ له صوت مثل صوت البقر، كلما مرت الرياح أخرجت هذا الصوت ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ ثم انكشفت الحقيقة ووضح الضلال، وجاءت نوبة الندم ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ قال الزمخشرى: [لما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غمًا، فتصير يده مسقوطًا فيها؛ لأن فاهه قد وقع فيها] ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنيا ودين.

* * *

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾

وعندما رجع مُوسى إلى قومه غاضبًا وثائرًا، فقد أعلمه ربه بعبادتهم العجل ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ بئس ما فعلتموه فى غيابى ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ هل استعجلتم عقاب الله؟! ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ ظنّا منه أنه قد قصر فى نصحهم، فقال هارون (عليه السلام) مسترحمًا: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ اعتبرونى ضعيفًا لا حيلة لى ﴿فَلا

تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ وهنا اتجه موسى (عليه السلام) إلى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾

تبين الآية الأولى أن كل صاحب بدعة إشراك بالله مصيره غضب الله، والذلة والمهانة في الدنيا والآخرة، وتدل الآية الثانية على سعة مغفرة الله ورحمته للعصاة والبغاة والكفرة إذا ما تابوا وأنابوا ورجعوا للحق، فإن الله ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾

ولما هدأ عن موسى (عليه السلام) الغضب، وبدأ يجمع الألواح التي ألقاها على الأرض عندما ثار وغضب من قومه، وفي تلك الألواح هدى ورحمة لمن يخاف مقام ربه. ثم اختار موسى (عليه السلام) أن يجمع سبعين من المؤمنين، ممن لم يعبدوا العجل ليناجوا ربهم بالاستغفار، وراح القوم يسألون الله ويتضرعون أن يرفع عنهم البلاء ويهديهم صراطه المستقيم، فإذا بزلزلة عنيفة تتملكهم، فلما رأى موسى ذلك تضرع لله ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ لو شئت يا رب لأهلكتنا وقتما عبد الضالون العجل، وليس ونحن نستغفر ونتوب عن ذلك الفعل ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أتهلكنا يا رب العالمين بفعل سفهائنا؟ ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ طبقًا لحكمتك وعلمك الأزلي ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

* * *

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾

ولأنك يا الله خير الغافرين والراحمين والمحسنين ﴿ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، إنا تبنا ورجعنا إليك، فقال تعالى ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ مثل أولئك الذين ذكرتهم الآية ١٤٦ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وسعت رحمتى كل الذنوب بتوبة العاصى، فسأكتبها للذين يتقون معصيتى وينفقون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآياتى، ومنهم أهل الكتاب الذين يتبعون رسولى محمدًا الذى بينته لهم فى التوراة والإنجيل[1]، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويبين لهم

---

(١) من بعض تلك البينات:

أولاً من العهد القديم:

* لهذا أقيم لهم نبيًا من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامى فى فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره به ـ التثنية ١٨: ١٨-٢٠.
* وكان الله مع الصبى (إسماعيل) فكبر، وسكن فى صحراء فاران، وبرع فى رمى القوس. واتخذت له أمه زوجة من مصر ـ التكوين ٢١: ٢٠-٢١.
* أقبل الرب من سيناء، وأشرف عليهم من سعير، وتألق فى جبل فاران ـ التثنية ٣٣: ٢.
* هوذا عبدى الذى أعضده، مختارى الذى ابتهجت به نفسى. وضعت روحى عليه ليسوس الأمم بالعدل. لا يصيح ولا يصرخ ولا يرفع صوته فى الطريق. لا يكسر قصبة مرضوضة، وفتيلة مدخنة لا يطفىء. إنما بأمانة يجرى عدلاً. لا يكل ولا تثبط له همة حتى يرسخ العدل فى الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته ـ إشعياء ٤٢: ١-٤.
* غنوا للرب أغنية جديدة، سبحوه من أقاصى الأرض أيها المسافرون فى عباب البحر وكل ما فيه ويا سكان الجزائر. لتهتف الصحراء ومدنها، وديار قيدار المأهولة. ليتغن بفرح أهل سالع وليهتفوا من قمم الجبال. وليمجدوا الرب ويذيعوا حمده فى الجزائر ـ إشعياء ٤٢: ١٠-١٣.

أشراق نور الرب

قومى استضيئى، فإن نورك قد جاء، ومجد الرب أشرق عليك. ها إن الظلمة تغمر الأرض، والليل الدامس يكتنف الشعوب، ولكن الرب يشرق عليك، ويتجلى مجده حولك، فتقبل الأمم إلى نورك، وتتوافد الملوك إلى إشراق ضيائك.

تأملى حولك وانظرى، فها هم جميعًا قد اجتمعوا، وأتوا إليك. يجىء أبناؤك من مكان بعيد، وتحمل بناتك على الأذرع. عندئذ تنظرين وتتهللين، وتطغى الإثارة على قلبك، وتمتلئين فرحًا لأن ثروات البحر تتحول إليك وغنى الأمم يتدفق عليك. تكتظ أرضك بكثرة الإبل. من أرض مديان وعيفو تغشاك بكران، تتقاطر إليك من شبا محملة بالذهب واللبان وتذيع تسبيح الرب. جميع قطعان قيدار تجتمع إليك، وكباش نبايوت تخدمك، وأمجد بيتى البهى ـ إشعياء ٦٠: ١-٧ =

الحلال والحرام، ويخفف عنهم التكاليف الشاقة التى فى التوراة، وما ابتدعه آباء الكنيسة الأوائل من زهد فى حلال الدنيا، من طيبات الرزق الحلال فى الطعام والشراب والملبس والمسكن، وفى الزواج، وفى التجارة الحلال، فمن يؤمن برسولى ويؤيده وينصره اتباعًا للنور الذى أتى به، فأولئك هم المفلحون.

* * *

= [عاش إشعياء بعد داود وسليمان صلى الله عليهما وسلم، ولم يعد هناك أى ملك ولا دولة وسلطان لبنى إسرائيل. ونبايوت وقيدار هما من أبناء إسماعيل (ﷺ)].

أقبل الله من أدوم وجاء القدوس من جبل فاران غمر جلاله السماوات، وامتلأت الأرض من تسبيحه حبقوق ٣ : ٣ .

ثانيا: العهد الجديد:

أ- بينات بتحويل الرسالة عن بنى إسرائيل:

* ولما رأى يوحنا [يحيى (ﷺ)] كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إليه ليتعمدوا، قال لهم: «يا أولاد الأفاعى، من أنذركم لتهربوا من الغضب الآتى؟ فأثمروا ثمرًا يليق بالتوبة. ولا تعللوا أنفسكم قائلين: لنا إبراهيم أبًا! فإنى أقول لكم: إن الله قادر أن يطلع من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم وها إن الفأس قد ألقيت على أصل الشجر، فكل شجرة لا تثمر ثمرًا جيدًا تقطع وتطرح فى النار» ـ متى ٣ : ٧-١٠ .

* لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله سينزع من أيديكم ويُسلم إلى شعب يؤدى ثمره ـ متى ٢١ : ٤٣

* فقد كان يقول للجموع الذين خرجوا إليه ليتعمدوا على يده: «يا أولاد الأفاعى، من أنذركم لتهربوا من الغضب الآتى؟ فأثمروا ثمارًا تليق بالتوبة، ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم: لنا إبراهيم أبًا! فإنى أقول لكم إن الله قادر أن يطلع من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. وها إن الفأس أيضا قد وضعت على أصل الشجر: فكل شجرة لا تثمر ثمرًا جيدًا تقطع وتطرح فى النار». لوقا ٣ : ٧-١٠ .

ب- بينات عن محمد (ﷺ):

* وها أنا سأرسل إليكم ما وعد به أبى ـ لوقا ٢٤ : ٤٩ .

* سوف أطلب من الآب أن يعطيكم معينًا آخر يبقى معكم إلى الأبد، وهو روح الحق يوحنا ١٤ : ١٦ .

* أما الروح القدس، المعين الذى سيرسله الآب باسمى، فإنه يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته يوحنا ١٤ : ٢٦ .

* لن أكلمكم كثيرًا بعد، فإن سيد هذا العالم قادم على، ولا شىء له فى ـ يوحنا ١٤ : ٣٠

for the ruler of this world is coming, and he has nothing in me.

* وعندما يأتى المعين الذى سأرسله لكم من عند الأب، روح الحق الذى ينبثق من الآب فهو يشهد لى ـ يوحنا ١٥ : ٢٦ .

* ولكن عندما يأتيكم روح الحق يرشدكم إلى الحق كله؛ لأنه لا يقول شيئًا من عنده، بل يخبركم بما يسمعه ويطلعكم على ما سوف يحدث ـ يوحنا ١٦ : ١٣ .

والمُعين، أو المُعزى أو المساعد، هو فى الأصل اليونانى پاراكليتوس، وتعنى أحمد.

* وهناك بشارات كثيرة فى الأناجيل بقرب قدوم ملكوت الله، قالها يوحنا [يحى (ﷺ)]، ويسوع (عيسى ﷺ)، أولّها المفسرون على أنها يسوع، رغم أنه قال بوضوح:

ليست مملكتى من هذا العالم ـ يوحنا ١٨ : ٣٦ .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾

قل يا محمد لجميع الناس: إنى رسول الله إليكم، فآمنوا بالله الواحد الأحد الذى يحيى ويميت، واتبعونى حتى تهتدوا. وقد أرسل محمد (ﷺ) رسائل بذلك لكسرى الفرس وهرقل الروم ومقوقس مصر، بعد أن دعا كل من فى شبه الجزيرة العربية وأطرافها للإسلام.

* * *

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) ﴾

يؤكد القرآن المرة تلو المرة على أن هناك من قوم موسى (ﷺ) جماعة ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ يهدون الناس بالحق، وبه يحكمون بين الناس فيعدلون ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ الأسباط: أولاد الولد، وكانوا اثنى عشر ولدًا ليعقوب، أو أسباط إسحاق وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولكلّ منهم عشيرته. وأوحى الله إلى موسى (ﷺ) عندما طلب منه قومه ماءً للشرب: ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ ثم تفضل عليهم بآيتين ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ جعل الله السحاب كمظلة تقيهم حر الشمس، وأنزل عليهم طعامًا حلوًا مثل العسل، وطائر السمان؛ ليأكلوا من الطيبات، فظلموا أنفسهم حين لم يحمدوا الله، بل جحدوا آياته ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾

قال لهم موسى: ﴿ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ ولم يحدد القرآن أى قرية، ولم نجد حديثًا صحيحًا عنها، وانعموا برزقها ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ اطلبوا من الله أن يحط عنكم ذنوبكم

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ مخبتين متواضعين ومنكسرين لله، وسيزيد الله المحسنين منكم إحسانًا ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ فغير الذين ظلموا منهم قول الله، فأنزل الله عليهم ﴿ رِجْزًا ﴾ عذابًا من السماء ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾

وليس ذلك بسؤال استعلام، ولكنه إعلام لهم بالغيب الذى كشفه الله لرسوله حتى يؤمنوا به، وفى الوقت نفسه تذكير لهم بوجوب طاعة الله ووعيد لمن يعصاه ﴿ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ مشرفة على البحر ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ يعتدون فى السبت باصطيادهم السمك الذى جعله الله لايأتيهم إلا فى السبت، بلاءً على عصيانهم.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ ﴾ تساءلت مجموعة من المصلحين من أهل القرية المشرفة على البحر: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ما الفائدة فى نصح الجاحدين العصاة بعد أن تبين لكم إصرارهم على الانحراف ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ نعظهم اعتذارًا إلى ربنا من أفعالهم؛ ولئلا نُقَصِّر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولعلهم يرجعون عما يعملون ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ فلما تغافلوا عما يقال لهم ولم يرتدعوا ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ نجينا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أما الفاسقون فأخذناهم بعذاب أليم ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ فلما تكبروا وتمادوا فى عصيانهم ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال جمهور المفسرين إنهم مُسخوا قردة بالفعل، وقال مجاهد: [مسخت قلوبهم، بمعنى الطبع

والختم (عليها)، وهو مثل قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]]، وقد نقل قول مجاهد كلّ من الطبرى والرازى والألوسى، وغيرهم، ومن المعاصرين محمد عبده، والمنتخب فى التفسير، وغيرهما، ومن قال بالمسخ الفعلى؛ قال إنهم ماتوا بعد زمن قصير، ولم ينسلوا. ولكن الآية التالية تؤيد تأويل مسخ القلوب وليس المسخ الفعلى إلى قردة[1] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وإذ قضى ربك أن يرسل على أولئك الجاحدين العصاة من يذيقهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا.

***

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾

يُخبر الله نبيه أنه فرق بنى إسرائيل فى أقطار الأرض أممًا، منهم الصالحون، ومنهم الأقل صلاحًا ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ واختبرناهم بالنعم والنقم؛ لعلهم يرجعون إلى الحق ويعملون به.

***

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾

فجاءت بعدهم أجيال فضلوا عرض الدنيا الزائل من متاع قصير، وتركوا دينهم الحق، ويبررون ذلك قائلين ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ثم هم بعد ذلك يصرون على المعصية ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ فإذا أتاهم، بعد استغفارهم السابق، شىء آخر من متاع الدنيا القصير على حساب دينهم، اكتسبوه وافتروا على الله الكذب، ويذكرهم الله ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فقد أخذ الله ميثاقهم بالتوراة، من بعد عهدهم الأول وهم فى ظهور آبائهم، كما أنهم درسوا التوراة، ومع هذا يفضلون الدنيا على الآخرة،

(١) ارجع لشرح الآية ٦٥ من سورة البقرة.

رغم أن الآخرة خير من الأولى لمن يعقلون، والذين يتمسكون بكتابهم ويقيمون الصلاة، فإن الله لايضيع أجر المصلحين.

* * *

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾

وذكرهم يامحمد بابتلاء الله لهم حتى يلتزموا الصراط المستقيم، فقد رفع فوقهم الجبل ـ ولكل امرئ، هناك ما يشبه جبل الطور الذى رفعه الله فوق بنى إسرائيل، يحذره عصيان الله، ويدفعه للصراط المستقيم، يتغير بتغير حال الإنسان ـ ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ كأنه يظللهم، وشيكًا على السقوط عليهم لو انحرفوا وعصوا ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ خذوا ما فى الكتاب بقوة ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ واعملوا بما فيه من إرشادات لعلكم تؤمنون وتطيعون الله، وتجتنبون الشرك والمعاصى.

* * *

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾

يقول سيد قطب: [إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآنى فى صورة مشهد ـ على طريقة القرآن الغالبة ـ وإنه لمشهد فريد.. مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب السحيق، المستكنة فى ظهور بنى آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ فى قبضة الخالق المربى، فيسألها: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾؟.. فتعترف له ـ سبحانه ـ بالربوبية؛ وتقر له ـ سبحانه ـ بالعبودية؛ وتشهد له ـ سبحانه ـ بالوحدانية؛ وهى منثورة كالذر؛ مجموعة فى قبضة الخالق العظيم!

إنه مشهد كونى رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً فى تصوراتها المأثورة! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشرى جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التى لا تحصى، وهى تجمع وتقبض. وهى تخاطب خطاب العقلاء ـ بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التى أودعها إياها الخالق المبدع ـ وهى تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقر وتشهد؛ ويؤخذ عليها الميثاق فى الأصلاب!].

وتعنى الآية أن الله زرع فى فطرة الإنسان حقيقة التوحيد[1]، فلن يقبل تحججه بالغفلة أو بأنه تبع آباءه فى شركهم، وقد فصل له ما فطره عليه لعله يرجع عن جحوده.

***

(١) وقد توصل العلم الحديث إلى حقائق علمية تعيننا على فهم هذه الآية.
فكل فرد من البشر ينشأ من إخصاب بويضة الأم بحيوان منوى من الأب. وتتكون فى الغدد التناسلية (المبيض والخصيتين) التى تُكَوِّن البويضات والحيوانات المنوية، فى منطقة الظهر فى كلٍّ من الأبوين حين كانا أجنة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وبناء على ذلك، يُفهم من الآية أن الله ـ عز وجل ـ قد وضع فطرة الإيمان بالله فى جينات الإنسان الموجودة فى البويضات والحيوانات المنوية.
ولننظر إلى هذا المعنى فيما صرح به أئمة علم الوراثة فى العصر الحديث:
يخبرنا إدوارد ويلسون[أ] Edward O.Wilson (أستاذ البيولوچيا الاجتماعية فى جامعة هارڤارد) أن الإنسان عاطفى بطبعه، وأن هذا الحس مُسَجَّل فى چيناتنا.
كما يخبرنا جيمس واطسون J.Watson[ب] فى كتابه DNA، أن المفاهيم الأخلاقية moral codes مدموغة فى چينات الإنسان منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.
كذلك يخبرنا روبرت وينستون[ت] Robert Winston فى كتابه «الفطرة البشرية»، أن الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية، وأنه مسجل فى چيناتنا.
ولا شك أن هناك علاقة قوية بين هذه العناصر الثلاثة: كون الإنسان عاطفيًا بطبعه، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية.
ويؤكد مايكل شيرمر[ث] Michael Shermer (رئيس تحرير مجلة الشكّاك) Skeptic أن الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا.
ويذكر بول بلوم (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة):
«إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغ فى چيناتنا (Hard Wired) الإيمان بحياة أخرى تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية[ج]». =

(أ) إدوارد ويلسون: ولد فى أمريكا عام ١٩٢٩، من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة پوليتزر مرتين. يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوچيا والطبيعة الإنسانية.
(ب) چيمس واطسون: ولد فى أمريكا عام ١٩٢٨، والتحق بجامعة شيكاغو وعمره ١٥ عامًا. حصل على الدكتوراة فى علم الوراثة عام ١٩٥٠. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA، ومازال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوچية.
(ت) روبرت وينستون: إنجليزى، ولد عام ١٩٤٠. يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والخلايا الجذعية والحيوانات المنوية. ويشغل منصب رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم. وهو كاتب وإعلامى شهير.
(ث) مايكل شيرمر: أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت ـ أمريكى، ولد عام ١٩٥٤، مهتم بالفلسفة والعلوم، يرأس تحرير مجلة Skeptics التى تضم 55.000 عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات.
(ج) جاء هذا الطرح فى كتابه:
Descartes baby: How the Science of child development explains what makes us Human الذى نشر عام ٢٠٠٤.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾ .

يقول سبحانه وتعالى لرسوله محمد: اتل على بنى إسرائيل قصة من آتاه الله علمًا، ولكنه رفضه، واتبع هواه واطمأن وسكن لمتع الأرض الزائلة، فهو كالكلب فى لهثه، سواء كان خائفًا هاربًا، أو أقعى، أى جلس، يلهث دائمًا، فلا سكينة ولا طمأنينة فى حياته، وذلك حال المكذبين بآيات الله. وتقرر الآية الأخيرة أن الهادى هو الله، ومانع الهدى هو الله.

* * *

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

---

= وأخيراً توصل دين هامر Dean Hamer (رئيس وحدة أبحاث الچينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) إلى أن الإنسان يرث مجموعة من الچينات التى تجعله مستعداً لتقبل مفاهيم الألوهية والدين. God Gene Hypothesis.

وقد خرج دين هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على چينات السلوك، وعلى دراسات بيولوچيا الأعصاب وعلم النفس. وقد نشر نتيجة هذه الأبحاث فى كتابه The God Gene: How faith is Hard Wired into our genes, عام ٢٠٠٤.

ومن أهم الچينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الچين المعروف باسم VMAT2.

وتقوم الچينات الوراثية بالتحكم فى تشكيل الدوائر العصبية فى المخ، أثناء حياتنا الچينية وطفولتنا. وقد توصل د. آندرو نيوبرج Andrew Newberg (أستاذ الأشعة التشخيصية وأستاذ الطب النفسى ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية، بجامعة پنسلڤانيا بالولايات المتحدة) إلى موضع المراكز العصبية المسئولة عن المفاهيم الدينية والنشاطات الروحية فى المخ، بل إنه قام بتأسيس علم جديد لدراسة العلاقة بين بيولوچيا المخ وبين هذه المفاهيم والنشاطات، وقد أطلق على هذا العلم اسم Neuro - Theology.

وقد أثبت كلود كلونجر Claud Cloninger (رائد أبحاث الچينات وبيولوچيا الأعصاب والطب النفسى والأمراض النفسية بجامعة واشنطن) وجود علاقة بين سمو الإنسان النفسى وميوله الروحية وبين چيناته الوراثية ودوائره المخية. وقد أكد ذلك فى نظريته الراسخة فى علم النفس، والمعروفة باسم نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية.

وتنعكس هذه الفطرة الدينية المدموغة فى چيناتنا ودوائر مخنا العصبية على تفكير الإنسان. لذلك أثبت هوارد جاردنر Haward Gardner (الأستاذ بجامعة هارڤارد) «الذكاء الروحى» كأحد أنواع الذكاء التى يتمتع بها الإنسان.

عن كتاب رحلة عقل، للدكتور عمرو شريف ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٠.

لقد خلقنا كثيراً من الجن والإنس ﴿لجهنم﴾ وبئس المصير؛ أولئك الذين وصفتهم الآية ١٤٦، فارجع لها، وأولئك ﴿كالأنعام﴾ أى كالبهائم، لم ينتفعوا بما وهبهم الله من نعمة الشهادة الأولى فى ظهور آبائهم، ونعمة الفطرة السليمة، والمدارك المتنوعة، من سمع وإبصار وعقل وقلب، بل هم أضل وأسوأ؛ لأن البهائم تطلب منافعها بالفطرة.

***

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾

قال سيد قطب: [والإلحاد هو الانحراف أو التحريف.. وقد حرف المشركون فى الجزيرة أسماء الله الحسنى، فسموا بها آلهتهم المدعاة.. حرفوا اسم «الله» فسموا به «اللات». واسم «العزيز» فسموا به «العزى».. فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنى لله وحده. وتأمر أن يدعوه المؤمنون وحده بها، دون تحريف ولا ميل؛ وأن يدعوا المحرفين المنحرفين؛ فلا يُحَفِّلوهم (لا يحفلوا بهم) ولا يأبهوا لما هم فيه من الإلحاد. فأمرهم موكول إلى الله؛ وهم ملاقونَ جزائهم الذى ينتظرهم منه.. ويا له من وعيد!.

وهذا الأمر بإهمال شأن الذين يلحدون فى أسماء الله؛ لا يقتصر على تلك المناسبة التاريخية، ولا على الإلحاد فى أسماء الله بتحريفها اللفظى إلى الآلهة المدعاة.. إنما هو ينسحب على كل ألوان الإلحاد فى شتى صوره.. ينسحب على الذين يلحدون ـ أى يحرفون أو ينحرفون ـ فى تصورهم لحقيقة الألوهية على الإطلاق. كالذين يدّعون له الولد. وكالذين يدّعون أن مشيئته ـ سبحانه ـ مقيدة بنواميس الطبيعة الكونية! وكالذين يدعون له كيفيات أعمال تشبه كيفيات أعمال البشر ـ وهو سبحانه ليس كمثله شىء ـ وكذلك من يدعون أنه سبحانه إله فى السماء، وفى تصريف نظام الكون، وفى حساب الناس فى الآخرة، ولكنه ليس إلهًا فى الأرض، ولا فى حياة الناس.

وما كانت البشرية لتستحق التكريم لو لم تكن فيها دائمًا ـ وفى أحلك الظروف ـ تلك الجماعة ـ التى يسميها الله «أمة» بالمصطلح الإسلامى للأمة، وهى: الجماعة التى تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على آصرتها (رباطها)؛ وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة ـ فهذه الأمة الثابتة على الحق؛ العاملة به فى كل حين، هى الحارسة لأمانة الله فى الأرض، الشاهدة بعهده على الناس، التى تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده فى كل جيل.

ونقف لحظة أمام صفة هذه الأمة: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

إن صفة هذه الأمة ـ التى لا ينقطع وجودها من الأرض أيًا كان عددها ـ أنهم ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ . . فهم دعاة إلى الحق، لا يسكتون عن الدعوة به، وإليه، ولا يتقوقعون على أنفسهم؛ ولا ينزوون بالحق الذى يعرفونه. ولكنهم يهدون به غيرهم. فلهم قيادة من حولهم من الضالين عن هذا الحق، المتنكرين لذلك العهد؛ ولهم عمل إيجابى لا يقتصر على معرفة الحق؛ إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ . . فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق فى حياة الناس والحكم به بينهم، تحقيقًا للعدل الذى لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق. . فما جاء هذا الحق ليكون مجرد علم يعرف ويدرس. ولا مجرد وعظ يُهدى به ويعرَّف! إنما جاء هذا الحق ليحكم أمر الناس كله. يحكم تصوراتهم الاعتقادية، وشعائرهم التعبدية، وحياتهم الواقعية، وعاداتهم وتقاليدهم، ويحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم.

إن طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل التلبيس! صلبة لا تقبل التمييع! والذين يلحدون فى هذا الدين يجدون مشقة فى تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة. . وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهودًا لا تكل، وحملات لا تنقطع، ويستخدمون فى تحريفه عن وجهته وفى تمييع طبيعته، كل الوسائل وكل الأجهزة، وكل التجارب. . هم يسحقون سحقًا وحشيًا كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة فى كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التى يقيمونها ويكفلونها فى كل بقاع الأرض! وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويحلون ما حرم الله، ويميعون ما شرعه، ويباركون الفجور والفاحشة، ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه! وهم يزحلقون المخدوعين فى الحضارات المادية، المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة الإسلام فى التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع، ورفع شعاراتها، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها!.

إنها المعركة الضارية مع هذا الدين والأمة التى تهدى به وتحاول أن تعدل به. . المعركة التى تستخدم فيها جميع الأسلحة بلا تحرج، وجميع الوسائل بلا حساب؛ والتى تجند لها القوى والكفايات وأجهزة الإعلام العالمية؛ والتى تسخر لها الأجهزة والتشكيلات الدولية.

ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية. والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق ـ على قلة العدد وضعف العدة ـ ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية. . والله غالب على أمره].

***

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾

أما الذين يكذبون بآيات الله، فى فطرهم وضمائرهم، وفى كتبه ورسله وآياته المتنوعة والمتعددة فى الكون وأحداثه، والتى يدركونها بما حباهم الله من أسماع وأبصار وعقول وقلوب ولكنهم يجحدونها، أولئك المستكبرون الذين يرفضون سبيل الهدى، ويبتغون سبيل الضلال ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ من حيث لا يعلمون، سنمد لهم فى طغيانهم وهم لا يعلمون ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ جاء فى الحديث الصحيح «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخارى ومسلم ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ليس به جنون، إن هو إلا رسول ربه لينذر ويحذر ويبلغ الرسالة. أولم ينظر هؤلاء الظالمون الجاحدون لآيات الله فى سماوات مرفوعة بلا أعمدة، تجرى فيها الأفلاك بنظام محكم؟، والأرض التى سخرها الله لهم، والتى تنبت كل ما يحتاجونه، وما عليها من أنواع البشر والحيوان والأنهار والبحار. . . . وكلها تدل على نظام محكم لا يمكن أن تتنازعه آلهة؟ ما هؤلاء القوم؟ أفلا يتفكرون أنهم ملاقو ربهم؟ ﴿ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ألن يموتوا كما مات من كان قبلهم؟ فماذا بعد كل هذا البيان والتفصيل والتوكيد؟ كيف لا يؤمنون ويخشعون؟! ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ من يصر على التكبر والجحود فلا أحد يملك له الهداية، ويتركهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ويضطربون.

***

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾

يسألك المكذبون يا محمد عن ساعة البعث والحساب، متى تحل بهم؟ قل لهم: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا ﴾ لا يظهرها ولا يكشف عنها إلا الله ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهل هناك أثقل من وضع الموازين الحق يوم الحساب، وإبطال موازين الزيف والغرور التى زينها المتكبرون الجاحدون الظالمون من البشر، ثم تبدأ الحياة الحقة التى لا تنتهى

بصاحبها بعد بضعة عقود بل هي إلى خلود، إما في النعيم وإما في الجحيم؟ ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ لن تأتيكم إلا فجأة ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يسألونك كأنك عالم بها، فقل لهم مؤكداً إن ﴿عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

قال سيد قطب: [والرسول (ﷺ) وهو من هو؛ وقربه من ربه هو قربه، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام غيب الله بشر، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؛ لأنه لا يطلع على الغيب، ولا يرى مآل أفعاله؛ ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم، وإن رآها سوءاً أحجم. إنما هو يعمل، والعاقبة تجيء كما قدر الله في غيبه المكنون ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.

وبهذا الإعلام يتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق، من الشرك في أية صورة من صوره. وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها. ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشري. وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله (ﷺ) وتتحدد وظيفته ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والرسول (ﷺ) نذير وبشير للناس أجمعين. ولكن الذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة؛ فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه؛ وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به. ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين].

* * *

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾

وتستطرد الآيات فى الحديث عن رب العالمين، فهو الذى خلق البشر من نفس واحدة، وجعل زوجها من نفس تلك النفس ليسكن الزوجان كلٌ للآخر، فلما واقعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ ما يكون فى أول الحمل ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فاجتازت شهور الحمل الخفيف ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ اكتمل خلق الطفل السوى، دعا الزوج والزوجة ربهما فقالا لإن وهبتنا طفلاً صالحًا لنصبحن لك من الشاكرين، وعندما رزقهما الله بالولد الصالح إذا هما ينسيان ما وعدا الله به من حسن العبادة والشكر، ويتجهان إلى الأصنام لتقديم مراسم الكفر ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال بعض المفسرين: إن الآيتين نزلتا فى كفار قريش، ولكن يمكن حملها على عموم البشر، وفى عموم أحوالهم، فإذا مرت بالإنسان ضائقة وشدة طلب الفرج واليسر من الله، واعدًا بأن يستقيم على الهدى والصلاح، فبعد يسر الله، يرجع الإنسان لسابق عهده فى العصيان، وربما الشرك.

***

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾

كيف للمشركين أن يشركوا مع الله أصنامًا عاجزة لا تملك القدرة على الخلق، والذى يصنعها هم المشركون؟ هذه الأصنام المعبودة لا تستطيع نصر المشركين ولا دفع الأذى عنهم.. وإذا نصحتموهم باتباع الهدى وبالتخلى عن الشركاء الزائفين أعرضوا عنكم. وسواء أدعوتموهم إلى الهدى أم ظللتم صامتين فلن يهتدوا أبدًا.

***

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾

إن هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله وترجون النفع منها، خاضعة لله مثل بقية المخلوقات، فجربوا أن تطلبوا منها شيئًا، فإن استجابت لكم فأنتم صادقون... ثم تأملوا فيما صنعتموه بأيديكم من أصنام آلهة، ألها أرجل تتحرك وتمشى بها؟ أم أن أيديها التى لا

حياة فيها يمكن أن تتحرك وتنجز خيراً أو شراً؟! أم أن أعينها تبصر؟! أم أن آذانها تسمع ﴿قُلِ﴾ فاجمعوا كل أصنامكم، ثم دبروا لى ما شئتم من المكائد، ولا تؤجلوا الكيد، بل سارعوا فى إيذائى إن كنتم قادرين.

ومثل أصنام الجاهلية المادية، يصنع بعض الناس أصناماً معنوية، يحتشد وراءها كثير من الناس، مثل المال والسلطة والشهرة وما إلى ذلك.

* * *

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾

قل لهم يا محمد: إن وليى وناصرى هو الله الذى نزل القرآن، وهو ينصر ويتولى الصالحين ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ لا يملكون نصركم ولا نصر أنفسهم، ومهما حاولت معهم يا محمد، فلن يؤمنوا لك ولن يتبعوا الهدى، ونظرهم إليك لا يعود عليهم بأى نفع لبصيرتهم، فقد استكبروا وجحدوا وظلموا، وعطلوا ما منحهم الله.

* * *

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

يأمر تعالى رسوله، وهو أسوة للمسلمين ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ اعف ولا تغضب ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بكل ما هو مستحسن فى أعراف الناس ما لم يخالف شرع الله، فدائماً هناك نتاج ربانى من الفطر السليمة والنفوس القويمة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإذا أصابك الشيطان بوسوسة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الجأ لله، عائذاً به، رافضاً إغواء الشيطان ووسوسته، إن المتقين إذا أصابتهم وسوسة الشيطان، تذكروا ربهم فاستغفروه واستعاذوا به، فإذا هم مبصرون لكيد الشيطان منصرفون عن غوايته ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ من شياطين الإنس والجن يحاولون إيقاعهم فى الغى والضلال ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا يكفون عن إضلالهم.

* * *

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾

طلب كفار قريش من رسول الله أن يطلب من ربه معجزات على هواهم، كأن يوسع بين جبال مكة، وما إلى ذلك ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ ﴾ كما طلبوا قالوا له: ﴿ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ هلا طلبتها من ربك؟ فقل لهم يا محمد: ﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ أنا لا أتبع إلا ما يأتينى من وحى الله، وأساسه آيات القرآن، حجة على كل ذى عقل يبصر الحق، فيه الهدى والرحمة للمؤمنين ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ أصغوا إليه وأعطوه كل انتباهكم، تدبروه لتعملوا به ولتفوزوا برحمات الله. قال الزمخشرى: [ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن فى صلاة وغير صلاة. وقيل: كانوا يتكلمون فى الصلاة فنزلت، ثم صار سنة فى غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا فى مجلس يقرأ فيه القرآن. وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وقيل: فاعملوا بما فيه، ولا تجاوزوه].

* * *

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ ذكر القلب الذى يقوم العمل على ما فيه ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ تذللاً ﴿ وَخِيفَةً ﴾ خوفًا على نفسك من الغفلة ومن وسوسة الشيطان ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ بين الإسرار والجهر ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾ ما بين الفجر وطلوع الشمس ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ جمع أصيل، وهو وقت الغروب، والمقصود طوال اليوم ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ اللاهين عن ذكر ربهم، وتذكر أن الذين عند ربك من الملائكة المقربين الكرام ﴿ يُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ فافعلوا كما يفعلون. وقال الماتريدى: [إن الذين تعبدون من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته؛ فأنتم أحق ألا تستكبروا عن عبادته؛ لأن من الناس من يعبد الملائكة، فخرج هذا جواب ذلك، والله أعلم].

* * *